تحمّلوا المجازر والتهجير والاعتقال. وفي سنوات ما بعد العسكرة وما ظنّه النظام السوري انتصاراً على المعارضة، وتكريساً لقوته العسكرية كطرف أوحد، تمردوا على كل محاولات "تعويم بشار الأسد" دولياً وعربياً، رفضوا الاعتراف والاستسلام، وقالوا إن ثورتهم عندما اندلعت لم تكن بتوجيهات خارجية ولا بناء على موازين قوى إقليمية، ولم يستشيروا أحداً في الخروج إلى هذه الثورة، فما استسلموا.

وبالتزامن مع كل محاولات تطويعهم لصالح الأسد وتعويمه، كان النظام يتداعى من الانهيارات السياسية، الأمنية، الاقتصادية والمعيشية، وصولاً إلى سقوطه النهائي مع إطلاق عملية ردع العدوان العسكرية.

فتح انتصار الثورة السورية الباب على سجالات كثيرة، وخلافات أكثر حول الجهة التي يمكنها أن تتبنى هذا الانتصار. حتماً اتجهت هيئة تحرير الشام إلى تبني الانتصار العسكري ونسب الانتصار الثوري وحصره بها وحدها. حتى أن بعض مسؤوليها كانوا يشيرون إلى فضلهم في الانتصار وعدم الاعتراف بالعمل التراكمي الذي أقدم عليه كل الشعب السوري. ومن السجالات التي تسجّل أيضاً هو التسابق حول من هي الجهة التي وصلت إلى دمشق قبل الأخرى بعيد مغادرة بشار الأسد للعاصمة السورية.

حيوية الاعتراض

يمارس أحمد الشرع "سلطته المطلقة" كمنتصر أوحد في الثورة، وهو يتحدث بوضوح عن ضرورة الانسجام وعن الانفتاح على المكونات الأخرى. وذلك يجعل انتفاضة السوريين مستمرة ومتواصلة. من انتفاضة النساء السوريات على تصريح لعائشة الدبس، إلى "انتفاضة زنوبيا" رداً على أفكار تتصل بتغيير المناهج الدراسية. يظهر المجتمع السوري حيوية استثنائية في مواجهة أي قرارات يمكن أن تتخذ من قبل الإدارة الجديدة، وتلقى معارضة شرائح كثيرة من المجتمع، ولا سيما من صفوف وصنوف المعارضين الأساسيين للنظام الأسدي.

تدفع الحيوية السورية، ورفض الشعب السوري العودة إلى زمن يعتبرونه غبر، باتجاه تشكيل عناصر ضغط قوي قادرة على استعادة توازن القوى السياسية. وهو ما دفع الإدارة الجديدة إلى التراجع عن قرارات كثيرة، وصولاً إلى توضيح عدم إدخال تغييرات على مناهج التعليم، أو إعادة النظر في طريقة توجيه الدعوات للحوار الوطني السوري وكيفية مشاركة القوى والأطراف المختلفة فيه، بدليل أن ذلك يحتاج إلى عملية إنضاج واضحة. تلك الحيوية هي التي ستمتحن "براغماتية" القيادة الجديدة في كل الاستحقاقات الداخلية، إن على مستوى تنظيم الحوار ومحتواه والمشاركين فيه وصولاً إلى إطلاق المؤتمر السوري العام، وتشكيل الهيئات المناط بها كتابة الدستور أو تحديد شكل النظام السياسي، وكيفية تشكيل حكومة المرحلة الانتقالية التي تضم مختلف المكونات، وتحديد مواعيد الانتخابات وقوانينها. أو على مستوى تشكيل من سيقوم بمهام العدالة الانتقالية، بالإضافة إلى الاستحقاقات